دور الملك المعظّم عيسى في مقاومة الغزو الصليبي 615هـ-624هـ/1217-1227م

حسين رجا الشقيرات

الملخص

تهدف هذه الدراسة الى تسليط الضوء على جهود الملك المعظم عيسى ودوره في مقاومة الغزو الصليبي والتصدي للحملات الصليبية وخاصة الحملة الهنغارية والحملة الصليبية الخامسة، وتكمن اهمية هذه الدراسة في محاولة الكشف عن النشاط الصليبي في المشرق العربي خلال فترة حكم الملك المعظم عيسى بشكل خاص وفترة حكم الدولة الأيوبية بشكل عام ومدى خطورة التحالفات داخل البيت الأيوبي وخارجه وتأثيراتها على خط سير الأحداث وموقف الملك المعظم من هذه التحالفات.

الكلمات المفتاحية: الملك المعظم عيسى، الحملات الصليبية، الإسبتارية، الداوية، التحالفات.

Abstract:

The present study aimed to shed a light on the efforts exerted by the Great King Issa. It aimed to explore the role of the latter king in fighting against the Crusader invasion, especially in fighting against the fifth crusade and the Hungarian crusade. The present study is significant because it sheds a light on the crusaders' activities in the Eastern World during the reign of the Ayyubid dynasty in general and the reign of the Great King Issa in specific. It is significant because it sheds a light on the serious impacts of alliances on the Ayyubid state and other states. It is significant because it sheds a light on the serious impacts of alliances on events. It sheds a light on the stand of the Great King Issa on these alliances

Keywords: The Great King Issa, crusades, the Sovereign Military Order of Malta (SMOM),the poor fellow-soldiers of Christ and of the temple of Solomon, alliances.

1.1مقدمة:

تتناول هذه الدراسة دور الملك المعظم عيسى احد ملوك البيت الأيوبي وجهوده في مواجهة الغزو الصليبي للمشرق الاسلامي وتحديدا دوره في مواجهة الحملة الهنغارية والحملة الصليبية الخامسة وتصديه لفرسان الإسبتارية والداوية ووقف الزحف الصليبي على الجبهة الشامية واهتمامه بتحصين الثغور ومواجهته للمحاولات الصليبية المتكررة للنيل من بيت المقدس.

1.2منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة في تناول الموضوع على المصادر الغربية تحديدا محاولة الكشف عن وجهة نظر الكتاب الغربيين حول الحملات الصليبية ومقارنتها بروايات المصادر العربية معتمدة بذلك على المنهج التحليلي للروايات والوقوف

على الكثير من المبالغات والمغالطات التي تناقضت في سردها المصادر المختلفة، ولعل قيمة الدراسة هنا تنبع من كونها اعتمدت على وجهات النظر المختلفة للموضوع المطروح للبحث.

1.3 اسمُه ومولده ونشأته ولقبه ووفاته:

الملك المعظّم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب بن شاذي بن مروان[1]، ولد في 5 رجب من سنة 576هـ/1180م[2]، ويجعل الصفدي (ت717هـ/1317م) مكان ولادته في دمشق[3]، بينما يجعل الذهبي (ت748هـ/1347م) ولادته في القاهرة[4]. والرّاجح أن ولادته كانت في دمشق استناداً لتواجد والده العادل هناك، وترجيحاً لرواية سبط ابن الجوزي القريب من الأسرة العادلية آنذاك.

نشأ المعظّم عيسى في كنف والده الملك العادل[5]، وأمّه التركيّة[6]، وكان لتلك التنشئةَ الدور الأكبر في صقل شخصيته [7]، فقرْبُهُ من والدِه أكسبهُ الكثيرَ من صفات والده العادل[8]، كالحزمِ، والمكرِ، وسدادِ الرأيِ، والصبرِ، واليقظةِ، والبذلِ، والحلمِ، حتى أنه كانَ يسمعُ ما يكره، ويتغاضى عنه كأنه لم يسمعهُ[9].

وكان والده كثير الأولاد، حيث بلغ تعدادهم ستة عشر أخاً من الذكور سوى البنات[10]، ولم يُعرف عن ملوكِ بني أيوب أحدٌ أكثرَ حباً لأبنائهِ من العادل[11]، وقد اختصّ المعظّم عيسى بجانبٍ كبيرٍ من ذلك الحب، حيث قرّبهُ وجعله نائباً له على دمشق[12]. وقد شاع في تلك الفترة الألقاب التي حملها ملوك وسلاطين الدولة الأيوبية. ومنها لقب "المعظّم" الذي حمله الملك المعظّم عيسى وعُرف به[13]. ويؤرخُ سبط ابن الجوزي لتاريخ وفاته، فيذكر أنّها كانت في ثالثِ ساعةٍ من نهارِ الجمعةِ أول يومٍ من ذي الحجة من سنة 624هـ/ 1227م، في قلعة دمشق ودفنَ فيها[14]. وكان عمره سبعا وأربعين سنة[1]، وقد ملَكَ دمشق مستقلاً بها مدّةَ تسعَ سنينٍ وخمسة شهور وثلاثةٌ

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص 494.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص644.

(3) الصفدي، الوافي،ج2، ص170.

(4) الذهبي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز(ت 748هـ /1347م)،العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 4 أجزاء،ج3، ص194.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 645.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص207.

(7) المصدر نفسه ، ج3، ص270.

(8) المصدر نفسه، ج3، ص271.

(9) المصدر نفسه، ج3، ص271.

(10) المصدر نفسه، ج3، ص272.

(11) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 650.

(12) سبط ابن الجوزي، مرآة ،ج8، ق2، ص 650.

(13) المصدر نفسه،ج8، ق2، ص644؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص 494.

(14) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 645.

وعشرين يوماً[2]، ابتداءً من اليوم التالي لوفاة والده الملك العادل في السابع من جُمَادَى الْآخِرَة سنة 615هـ / 1217م، ولغاية الأوّل من ذي الحجة سنة 624هـ/ 1227م[3].

لا يمكن تجاهل الوجود الصليبي البارز عند الحديث عن الفترة الممتدة ما بين (600هـ- 624هـ/ 1204م- 1227م)، واعتداءاته التي كانت تهدّد المناطق المجاورة للدولة الأيوبية، في عكّا وطرابلس وانطاكيّة وحصن الأكراد[4]. وقد ازدادتّ التّحرشات الصليبية في مناطق الشمال، وتحديداً حمص وحماة، وكان التخوّف واضحاً عند الأيوبيين من سقوط هاتين المدينتين، وبخاصّة أن سقوطهما يعني سقوط دمشق أهم الممالك الأيوبية[5].

1.4 الملك المعظّم عيسى في مواجهة الصليبيين على الجبهة الشّاميّة

اجتمع الصليبيون في عكّا سنة 600هـ/1204م، بأعداد كبيرة، وكان هدفهم القدس[6]، فقاموا بمهاجمة مناطق وادي الأردن، وأغاروا على قرية كفر كنا[7]، وأسروا جميع من فيها[8]، وكان الملك العادل أثناء ذلك في دمشق، حيث أعلن الجهاد وأخذ يستدعي النجدة[9]، وقد جاءته من كل النواحي، فاجتمعت الجيوش، وانضمّت إليه جيوش الشام ومصر، وتوجهوا جميعاً إلى جبل الطّورِ الذي يطلّ على عكّا[10]حيث ظلّ العادل مرابطاً للصليبيين حتى سنة 601هـ/ 1204م، ولم تقع بينهما أي عمليات عسكريّة خلال تلك الفترة[11]. وبعد ذلك بدأت المفاوضات

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص208.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص208.

(3) الصفدي، الوافي، ج2، ص 171.

(4) حصن الأكراد: حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب، وكانت قلعة هذا الحصن تابعةً لفرسان الإسبتارية، وتمتاز بمناعتها، تحميها الأبراج وتحيط بها الخنادق، ولها سوران يحدقان بها، وقد استولى عليها الإسبتارية عام 1110م. الحموي، معجم،ج2، ص276؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص259؛ وانظر جوزيف، نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر" هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، ط1، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1969، ص330.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص159.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص 128-138؛ ابن وواصل، مفرج الكروب، ج3، ص159.

(7) كفركنا: بلدة تقع بين طبرية والنّاصرة. الحموي، معجم، ج4، ص290.

(8) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص13؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص163.

(9) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص159.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص159؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p133.

(11) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 163.

للصلح بين الطرفين، ثمّ اتفقوا على هدنةٍ مدّتها ستُّ سنوات[1]، وأهم ما جاء في بنود تلك الهدنة، تأكيد سيطرة الصليبيين على النّاصرة ويافا[2]، وتنازل الملك العادل عن النصف الخاص بالمسلمين في اللد والرملة[3].

وبعد إقرار الهدنة، رجع الملك العادل بجيوشه إلى مصر، ورجع الملك المعظّم عيسى مع جيوش النجدة الشاميّة إلى دمشق[4]، وهذا يعني أن دور الملك المعظّم عيسى تمثّلَ في قيادة الجيوش الشّامية التي أتت لنجدة العادل، فكانت قيادتهُ تحت سلطة والده القائد الأكبر للجيوش الشّاميّة والمصريّة معاً.

ويذكر المؤرخ روجر أوف ويندوفر (ت: 1237م) معلومات حول استعدادات الصليبيين بعد الهدنة، وتنظيم صفوفهم في عكّا للانطلاق منها نحو دمياط، ومراقبة الملك المعظّم عيسى لتلك الاستعدادات، ورصد تحرّكات الصليبيين ونشاطهم في عكا[5].

2.4 الملك المعظّم عيسى في مواجهة الإسبتارية

في عام 601هـ/ 1205م أخذ الفرسان الإسبتارية[6] يهدّدون حماه، منطلقين من حصن الأكراد، فنهبوا وقتلوا وقتلوا وأسروا كثيراً من المسلمين[1]. وقد انضمّ إليهم عدد كبير من الصليبيين الذين عاثوا فساداً وسلباً في مناطق حماه، وعادوا إلى بلادهم بعد أن ملأوا أيديهم بالسبايا[2].

([1]) وقبل ذلك كان الملك العادل قد عقد هدنة مع الصليبيين وتحديداً في الرابع والعشرين من شعبان سنة 594هـ/ الأول من تموز 1198م وبمقتضى تلك الهدنة اصبحت يافا للمسلمين، وجبل بيروت للصليبيين، وتمّ اقتسام صيدا بين الطرفين، غير أن مدة تلك الهدنة فيها اختلاف، فتذكر المصادر العربية بأنها ثلاث سنوات. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص78؛ وابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص139، وتكتفي مصادر أخرى بذكر عبارة "حتى استقرت الهدنة" دون الإشارة إلى مدتها. انظر أبو شامة، الروضتين، ج2، ص234، وذكر بعضها أن الهدنة وقعت في شعبان من سنة 594هـ/ تموز 1198م وأوردت عبارة" انتظم الصلح"، انظر ابن الأثير، الكامل، 12، ص84. بينما ذكرت المصادر الأجنبية أن مدة الهدنة كانت خمس سنوات وثلاثة أشهر. انظر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)، ج33، ص48، ومن خلال سير الحوادث يتضح أن مدة الهدنة كانت أكثر من خمس سنوات بدليل أن الحديث عن تجديد الهدنة لم يرد ذكره قبل عام 600هـ/ 1204م.

([2]) ابن الأثير، الكامل، ج13، ص21.

([3]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص162.

([4]) الحموي، التاريخ المنصوري، ص42.

([5]) روجر أوف ويندوفر (ت:1237م)، ورود التاريخ، منشور في (الموسوعة الشاميّة)، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكّار، دمشق، 1421هـ/2000م، ج39، ق2، ص752.

([6]) الإسبتارية: Hospitallers ويعرفون أيضاً بفرسان القدّيس يوحنّا، وهم من الفرسان الصليبيين، تأسست جماعتهم سنة 1099م في أعقاب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وكان هدفهم في البداية علاج المرضى ومساعدة الحجاج، لكنها بعد ذلك تطورت واصبح أعضاؤها رجالاً يلبسون ملابس الرهبان ويقاتلون

وهنا ظهر دور الملك المعظّم عيسى في التّصدي لهم. فعندما زادت تحرّشات الإسبتارية في حماة، بعث صاحبها الملك المنصور إلى المعظّم عيسى يطلب منه النجدة والمساعدة[3].

أرسل المعظّم عيسى جيوشه إلى حماه لمساعدة صاحبها ضد الإسبتارية، غير أنّه لم تحدث مواجهات عسكريّة مع جيوش الصليبيين، لأنّ الملك المنصور استطاع أن يحصل على هدنة معهم، وبها انتهى تهديدهم لحماه، ورجعت جيوش المعظّم عيسى إلى دمشق[4].

وتجدّدت الاعتداءات الصليبية سنة603هـ/1206م، عندما زحفوا تجاه حمص وأغاروا عليها[5]، فوصل الخبر إلى الملك العادل في مصر فأسرع إلى الشام[6]، واستدعى العساكر من أهل بيته وامرائه من كل الممالك الأيوبية، فحضر لنجدته كلّ من الملك المنصور صاحب حماه[7]، والملك المجاهد صاحب حمص[8]، والملك المعظّم عيسى، والملك الأشرف، كما وصلت عساكر من سنجار والموصل وآمد[9]، حتى بلغ تعدادها عشرة آلاف فارس[10]، ويصفها ابن واصل بأنّها الأكبر عدداً في تاريخ الممالك الأيوبية[11]، وقامت تلك القوات بمحاصرة بحيرة قدس[12] القريبة من حمص، كما صالحت أهل عكّا، وفتحت برج أعناز[13]، وأسرت خمسمائة شخص منه، وغنمت

على الخيول، وقد لعبت هذه الجماعة دوراً كبيراً في تاريخ الحركة الصليبية عندما تحولت إلى القتال. الأصفهاني، الفتح القسي، ص62؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص212.

([1]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص523؛ أبو شامة، الذيل، ص51.

([2]) متّى الباريسي(1235–1273م)،التاريخ الكبير، منشور في(الموسوعة الشامية)، تأليف وتحقيق وترجمة، سهيل زكّار، دمشق،1422هـ/2001م،ج40، ق5، ص1872.

([3]) الداوادراي، كنز الدرر، ج7، ص156؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص24.

([4]) الحموي، التاريخ المنصوري، ص54؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص24.

([5]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص172.

([6]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص259؛ أبو شامة، الذيل، ص57.

([7]) الحموي، التاريخ المنصوري، ص54؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص24.

([8]) الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص.الحموي، التاريخ المنصوري، ص52؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 84.

([9]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.

([10]) المصدر نفسه ، ج3، ص173.

([11]) المصدر نفسه ، ج3، ص173.

([12]) بحيرة قدس: تقع بالقرب من حمص، طولها اثنا عشر ميلاً، وعرضها أربعة أميال، وهي بين حمص وجبال لبنان، ويخرج منها شمالاً نهر العاصي، وهي بحيرة الحولة حالياً. الحموي، معجم، ج1، ص516.

([13]) برج أعناز: حصن بين حمص والساحل. الحموي، معجم، ج1، ص163.

الأموال والسلاح[1]، واستطاع الملك العادل بهذه الجيوش أن يهاجم حصن الأكراد سنة603هـ/ 1206م، ويفرض عليه حصاراً شديداً [2]، غير أن تلك الجيوش لم تستطع السيطرة على
الحصن[3]، مما اضطرها إلى التوجّه نحو طرابلس فحاصرتها وطال حصارها لها[4]، وعاثت

العساكر خراباً في قراها وبساتينها، فقطعت الأشجار وجفّفت العيون فيها[5].

انسحبت جيوش الملك العادل أوائل ذي الحجة من سنة 603هـ/ 1206م[6]، إلى حمص واستقرت فيها، فأثار انسحابها خوف صاحب طرابلس الصليبي، فبعث للعادل بهدايا وأموال وثلاثمائة أسير كانوا لديه من المسلمين[7]، وطلب الصلح من الملك العادل، واستقرّ الصلح بين الطرفين في محرّم من سنة 604هـ/ 1207م، ورجع الملك العادل إلى دمشق وأقام فيها[8].

3.4 الملك المعظّم عيسى في مواجهة الدّاوية

انتهت الهدنة بين المسلمين والصليبيين[9]في شهر محرّم من سنة 607هـ/ تموز 1210م. فارسل الملك العادل إلى عكّا يطلب تجديد الهدنة[10]،غير أنّ الفرسان الدّاوية[11] لم توافق على تجديد تلك الهدنة بسبب الخلافات بينها وبين الإسبتارية على مشكلة الوراثة في أنطاكيّة[12]. وترتّب على ذلك أن تجدّدت المناوشات الحربية

([1]) الحموي، التاريخ المنصوري، ص53؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.
([2]) الحموي، التاريخ المنصوري، ص53؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.
([3]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص181؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.
([4]) الحموي، التاريخ المنصوري، ص53؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص51.
([5]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص181؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.
([6]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.
([7]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص181؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173؛ المقريزي، السلوك ، ج1، ق1، ص166.
([8]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص175.
([9]) المصدر نفسه ، ج3، ص175؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 102.
([10]) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص33.
([11]) الفرسان الدّاوية: جماعة من الفرنج أسسها هيودي باينز Hugh de pyens وجودفري أف سانت أومر Godfrey of st.Omer في سنة (1118/ 1119م)، ووضعت قواعدها في مؤتمر تروي Troyes في فرنسا سنة 1128م، وكان لهذه الجماعة دور كبير في الحروب الصليبية، كما أطلق عليها اسم فرسان المعبد Templers. الأصفهاني، الفتح القسي، ص62؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص133؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص102؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص911.
([12]) الأصفهاني، الفتح القسي، ص62.

بين الأيوبيين والصليبيين[1]. فقد مارست جماعة الفرسان الدّاوية أعمالاً استفزازيّة ضد المسلمين في الشام[2]، وكانت الجيوش الصليبية في عكا قد اجتمعت في سنة 607هـ/ 1210م[3]، وشكّلت تهديداً للأيوبيين في بلاد الشام، وردّاً على تلك الاستفزازات خرج الملك المعظّم عيسى وقصد بجيشه عكّا[4]، ولمّا وصلت أنباء تحرشات الفرسان الدّاوية إلى دمشق، نظّم العامةُ حملةً شعبيةً كبيرةً انضمّت إلى قوات المعظّم عيسى لمواجهة الصليبيين في عكا[5].

وقد اشترك في تلك الحملة المؤرخ سبط ابن الجوزي، والذي أفاض في وصف حماس أهل دمشق ورغبتهم في الجهاد[6]، فقال:" جلست في الجامع يوم السبت خامس أيّام ربيع الأوّل من سنة 607هـ/1210م، وكان النّاس من باب المشهد إلى باب السّاعات، وكان القيام في الصّحن أكثر، وقد امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفاً، وكان يوماً لم يُرَ بدمشق مثله ولا بغيرها"[7].

ويضيف سبط ابن الجوزي قائلاً:" إن النساء قطّعنَ شعورهن وقدّمنهُ للمجاهدين، ليعملوا منه حبالاً لخيلهم وكرفسات، فبلغ عدد هذه الحبال حوالي ثلاثمائة حبل [8]. وكان معنا من قرية واحدة يقال لها زملكا من قرى دمشق ثلاثمائة رجل بالعِدَدِ والسّلاح، وأمّا من غيرها فخلقٌ كثير والكلّ خرجوا احتساباً"[9].

غادرت هذه الجموع الشعبية دمشق باتجاه نابلس، وكان المعظّم عيسى مرابطاً فيها للصليبيين خائفاً على القدس من السقوط[10]، فقادَ تلك الجموع وتوجّه بها إلى عكّا حيث الصليبيين[11]. فخرّبوا وهدموا وقطعوا الأشجار، وأسروا جماعة من الصليبيين وقتلوا الكثيرين[12]، ثمّ عادوا إلى حصن الطّور، وأخذ المعظّم عيسى يعزّز من تحصينات حصن الطّور، ويُدَعِّمَها بأوامرٍ من والده الملك العادل[13].

قامت تلك الحملة على سواعد الجنود المُنظّمينَ في دمشق، تلك القوات التي كانت تحت إمرة الملك المعظّم عيسى، إذ لم تذكر المصادر دوراً واضحاً للملك العادل فيها.

([1]) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص133.
([2]) عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص102.
([3]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص201.
([4]) عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص911.
([5]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.
([6]) عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص911.
([7]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.
([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.
([9]) المصدر نفسه ، ج8، ق2، ص545.
([10]) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، (احداث 601-610)، ص63.
([11]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.
([12]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545
([13]) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، (احداث 601-610)، ص84.

4.4 الملك المعظّم عيسى يتحصّن في حصن الطّور لمواجهة الصليبيين

طلب الملك العادل من ابنه الملك المعظّم عيسى بعد حملة 607هـ/ 1210م بناء حصن على قمّة جبل الطّور القريب من عكّا[1]، فباشر المعظّم عيسى ببنائه في ذي الحجة من سنة 608هـ/ 1211م[2]، وقد اهتمّ المعظّم ببنائه اهتماماً كبيراً "فأحضر الصّناع من كلّ بلد واستعمل العسكر في البناء ونقل الحجارة"[3]، وقد أشرف بنفسه على عمليات البناء[4]، وبقي العمل جارياً فيه حتى سنة 612هـ/ 1215م، وقد كلّف البناءُ مبالغاً طائلةً وجهداً كبيراً[5]. تنبّه الصليبيون للخطر الّذي يشكّله حصن الطّور على مناطق نفوذهم في الساحل وفي عكّا خاصّةً، ولاحظوا سيطرته على تحرّكاتهم في النّاصرة، وإشرافه على منطقة الجليل. وقد دفعهم ذلك إلى طلب الصّلح مع المسلمين[6]، حيث عقدت معاهدة الصلح بين الملك العادل وجان دي برين[7] صاحب عكّا لمدّة ست سنوات، تبدأ من 608هـ-614هـ/1211م- 1217م[8].

لم تسعف المصادر الأولية اذا ما كان الملك المعظّم عيسى قد شارك بأي حملة ضد الصليبيين خلال فترة الهدنة، باستثناء إشارة واحدة تؤرخها المصادر اللاتينية سنة 611هـ/ 1114م في منطقة الخوابي[9]، وتشير

([1]) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص107.

([2]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

([3]) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص176.

([4]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

([5]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545؛ الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص84.

([6]) سبط ابن الجوزي، مرآة ،ج8، ق2، ص550؛ الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص84؛ أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ق2، ص 752؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص912.

([7]) جان دي برين: هو زوج الملكة ماريا الابنة الكبرى لأزابيلا من كونراد أف مونتفرات الذي اختير لعرش مملكة بيت المقدس في نيسان من عام 1193م، لكنّه مات في الثامن والعشرين من الشهر نفسه، وقد وصل جان دي برين للسلطة من خلال زواجه بماريا التي أنجب منها طفلته ازابيلا أو "يولاند" كما تطلق عليها بعض المصادر، وقد كان جان دي برين في الستين من عمره عندما تزوج بماريا، وقد قاد الحملة الصليبية الخامسة على دمياط615-618هـ/ 1218-1221م، وكان قد طلب من البابا انوسنت الثالث إعداد حملة عسكرية للوصول إلى الأراضي المقدسة. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، ج33، ص73؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ق2، ص 752.

([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص550؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ق2، ص 752.

([9]) الخوابي: هي أحد قلاع الاسماعيلية وتقع في الجهة الشمالية من طرابلس. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص147.

إلى أن قادة الصليبيين حشدوا قواتهم من قبرص وعكّا وطرابلس وانطاكيّة[1]، بالإضافة إلى من انضمّ اليهم من قوات الأرمن لقصد بلاد المسلمين ومهاجمة الإسماعيلية[2]، الذين كانوا قد قتلوا ريموند بن بوهمند الرابع[3]صاحب الرابع[3]صاحب انطاكيّة وطرابلس[4]، فحاصروا حصن الخوابي حصاراً شديداً[5]، وأثناء هذا الحصار طلب أهل الحصن النجدة من الملك الظّاهر صاحب حلب، والملك العادل[6] صاحب دمشق. فخرج الملك الظّاهر نصرةً لأهل لأهل الخوابي، ودخلها في اللحظة التي كان الصليبيون على وشك السيطرة عليها[7]، ووصلت القوات الدمشقية بقيادة الملك المعظّم عيسى إلى طرابلس[8]، فدخل قراها ونهبها وخرّبها واستاق الغنائم والأسرى منها[9]. وعندما علم علم أميرها بوهمند الرابع بأخبار حصار المعظّم لطرابلس، عدَلَ عن فكرة الانتقام لابنه ريموند من الإسماعيلية ورفع الحصار عن الخوابي[10]، فعاد المعظّم عيسى إلى بلاده بعد أن اطلق سراح الأسرى[11].

5.4 دور المعظّم عيسى في التّصدي للحملة الهنغاريّة

([1]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51؛ الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ق5، ص1872.

([2]) الإسماعيلية: إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الاثنى عشرية. تشترك الإسماعيلية مع الاثناعشرية في مفهوم الإمامة، إلا أن الانشقاق وقع بينهم وبين باقي الشيعة بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق(ت145هـ/762م)، انظر ظهير، إحسان إلهي (ت:1407هـ /1987م)، الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، ط10، جزء

واحد، 1415هـ /1995م، ج1، ص288. ؛ وانظر محمد كرد علي، كتاب خطط الشام، 6أجزاء، دمشق، المطبعة الحديثة، 1343- 1347هـ/ 1925- 1938م، ص 260. وسيشار اليه فيما بعد كردعلي، خطط الشّام.

([3]) بوهمند الرابع:(ت 1172-1233م) أمير انطاكيا وكونت طرابلس وعرف باسم " بوهمند الأعور" وحكم من 1291 إلى 1233م، خلفه أكبر أولاده بوهمند الخامس على حكم إمارة

انطاكيا وكونتية طرابلس. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشاميّة)، ج33، ص72.

([4]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51.

([5]) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167؛ أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51.

([6]) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167.

([7]) المصدر نفسه، ج3، ص167.

([8]) المصدر نفسه، ج3، ص167؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص912.

([9]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص583؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167.

([10]) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص912.

([11]) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167.

إن فترة سنوات الهدنة التي عقدها الملك العادل مع الملك جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس، اتاحت الفرصة للصليبيين بالتحضير لمشروع غزو مصر[1]، فبادر الملك جان دي برين بإرسال الرسل إلى روما، يطالب بإرسال حملة جديدة تصل إلى الشرق عند انتهاء أجل الهدنة[2]، وقد نفّذ الملك جان دي برين هذا المشروع من خلال الحملة الهنغاريّة، التي كانت بمثابة طليعة الحملة الصليبية الخامسة التي قصدت دمياط سنة 615هـ/ 1218[3].

استغلّ الملك جان دي برين انتهاء الهدنة سنة 614هـ/ 1217م، وعقد مجلساً حربياً في عكّا، ناقش فيه أمر مهاجمة القدس والسيطرة عليها[4]. وكانت وفود الصليبيين تتوافد على عكّا من انطاكيّة وقبرص وصور وصيدا[5]، وانضمت إلى القوات الهنغاريّة والألمانية التي قدِمت من أوروبا بقيادة ليوبولد السادس[6] دوق النمسا، وأندرو الثاني[7] ملك هنغاريا، وقد سمي هذا الحشد بالحملة الصليبية الهنغاريّة[1] التي عدت طليعة الحملة الصليبية

([1]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص52؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760.

([2]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص52.

([3]) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 912.

([4]) متّى الباريسي، التاريخ الكبير،(الموسوعة الشامية)،ج40، ص1881؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص144.

([5]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص583؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186. وانظر ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر

Gibb,H." The Ayyubides" Ahistory of the crusades, Edited by Setton,Vol,II, the university of Wisconsin press, Milwau Ree, 1969, p.p 388.؛ للمزيد من المعلومات حول خط سير الحملة الهنغارية انظر الخارطة رقم (4) في قائمة الملاحق.

([6]) ليوبولد السادس((Leopold: دوق أستريا الذي انضمّ لملك هنغاريا أندروا الثاني (Androw II)، في قيادة الحملة الهنغارية وكان بصحبته العديد من الأساقفة والكونتات وجموع الصليبيين الذين تجمّعوا في مدينة سبلاتوSpalto، في انتظار انضمامهم إلى قوات أندروا الثاني. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص71؛ وانظر عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص165.

([7]) أندروا الثاني (Androw II): ملك هنغاريا(1205– 1235م)، كان قد وقع عليه اختيار البابا هونوريوس الثالث لقيادة الحملة الهنغارية بعد أن اعتذر فردريك الثاني امبراطور المانيا عن قيادة تلك الحملة، حيث وافق اندرو على قيادتها بعد أن أقنعه البابا بذلك. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص72؛ وانظر عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص165؛ انظر الخارطة رقم(4) في قائمة الملاحق.

الصليبية الخامسة ومقدّمتها[2]، وقد اتفق الجميع على مهاجمة الحصن الذي شيّده المعظّم عيسى على جبل الطّور[3]. فخرجوا جميعاً من عكّا بقيادة دوق النمسا ليوبولد السادس، ونزلوا على عين جالوت[4]، ولمّا سمع العادل بهذا الزحف جاء مسرعاً من مصر[5]، مارّاً باللد والرملة، ثمّ بنابلس على أمل أن يسبق الصليبيين إلى عين جالوت، فوجدهم قد سبقوه إلى هناك[6].فرجع إلى بيسان[7]، والتقى بولده الملك المعظّم عيسى الذي عارضه في العودة إلى بيسان[8]، وطلب من والده أن يقاتل الصليبيين مباشرةً[9]. غير أن العادل رفض، وخاطب المعظّم عيسى شاتماً له بالأعجميّة، قائلاً: " وبمن أقاتلهم وقد أقطعت الشام مماليكك، وتركت من ينفعني من أبناء النّاس، الذين يرجعون إلى الأصول"[10].

أخذ الصليبيون بالزحف نحو بيسان بأعدادٍ كبيرةٍ[11]، وواصلوا سيرهم نحو بيسان فدخلوها وقتلوا أهلها وعاثوا فساداً فيها[12] فأيقن الملك العادل أنّه لا يستطيع مقاومتهم، فتراجع إلى غور الأردن[13]. وواصل سيره إلى عجلون بعد أن عَبرَ الشّريعة في غور الأردن[14]، وأمَر ولده المعظّم عيسى أن يأخذ قطعة من الجيش ويتوجّه به إلى نابلس لحماية بيت المقدس[15].

([1]) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر Gibb,H. The Ayyubides,Vol,II.p.p388.

([2]) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر Gibb,H. The Ayyubides,Vol,II.p.p388.

([3]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص209؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

([4]) عين جالوت: اسم أعجميّ وهي بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب في سنة 579هـ/1184م، وعلى ترابها دارت معركة عين جالوت الفاصلة في التاريخ. الحموي، معجم، ج4، ص177.

([5]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

([6]) المصدر نفسه ، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

([7]) ابن الأثير، الكامل،ج12، ص209؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

([9]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

([10]) أبو شامة، الذيل، ص102؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186.

([11]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص83؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ص 762.

([12]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ الحنبلي، شفاء، ص224.

([13]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

([14]) المصدر نفسه ، ج8، ق2، ص 583.

([15]) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 193.

نفّذ المعظّم طلب والده، وتوجّه بمن معه نحو القدس، واستقرّ في عقبة اللّبن[1]، يرصد تحركات الصليبيين[2]. أما الملك العادل فقد توجّه إلى دمشق، وأصدر الأوامر لواليها المبارز المعتمد ليتصدّى للصليبيين، وأن ينقل غلّاتها إلى القلعة[3]، كما أمر بتخريب المزارع والعيون والمروج حول دمشق حمايةً لها[4]، وبقي يراقب تحرّكات الصليبيين من مرج الصّفر متأهباً للمواجهة[5].أمّا الصليبيون فقد توجّهوا صوب حصن الطّور بعد أن دخلوا بيسان[6]. وكان المسلمون قد أغلقوا أبواب الحصن، وتعاهدوا على عدم فتح الحصن أمام الصليبيين، ففرض الصليبيون

الحصار على الحصن مدّة سبعة عشر يوماً[7]، وكانوا يهاجمونه بعنف، ولكنّهم لم يُفلحوا في الاستيلاء عليه[8]؛ لأن المسلمين كانوا يدافعون عنه دفاعاً مميتاً[9]، وقد ألحقوا الخسائر في الصليبيين وقتلوا جماعةً من أمرائهم [10]، الأمر الذي أجبر قادة الصليبيين على فكّ الحصار عن الحصن في رمضان سنة 614هـ/ 1217م[11]،والتراجع

([1]) عقبة اللّبن: قرية تتوسط مكان عالي بين القدس ونابلس على مرتفع من الأرض. الحموي، معجم، ج4، ص134.

([2]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص255؛ وانظر ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ص 774.

([3]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص83.

([4]) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186.

([5]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص255؛ وانظر عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص ص918.

([6]) إنّ مسألة اخراب واحراق بيسان مسألة خلافية في المصادر فيرى أبوشامة أن العادل أضرم النّار في بيسان قبل أن ينسحب منها. أبو شامة، الذيل، ص101؛ ويذكر أوليفر أن الصليبيين عندما دخلوا بيسان وجدوها خالية من السكان فنهبوها واستولوا على كل ما وقعت علية أيديهم. أوليفر أف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، ج33، ص81، وهذا ينفي رواية أبو شامة ؛ أما ابن الأثير فيروي أن أهل مدينة بيسان إطمأنوا إلى وجود العادل بينهم فلم يفارقوا المدينة، ففاجأهم الصليبيون ولم يستطع النجاة منهم إلا القليل، وهذا تأكيد آخر على عدم حرق العادل للمدينة، ابن الأثير، الكامل، ج12، ص209؛ وتتفق رواية كلّ من ابن واصل والمقريزي مع ما ذكره ابن الاثير وأوليفر، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص350 ؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 187؛ والأرجح أن العادل إنسحب فجأة من بيسان– دون أن يشعل النّار فيها– في الوقت الذي وطأت فيه أقدام الصليبين المدينة، ويبدو أن انسحاب العادل بهذه الصورة قد شجّع الصليبيون على التمادي في مهاجمة المناطق الواقعة بين بيسان وبانياس، مستخدمين النهب والسلب والحرق وسائل لاجتياح تلك المناطق.

([7]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص79.

([8]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص257.

([9]) الداوادراي، كنز الدرر، ج7، ص192.

([10]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 584؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

([11]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

إلى عكّا[1]، وعلى الرّغم من فشل الصليبيين في الاستيلاء على حصن الطّور، إلّا أنّ خسائر المسلمين كانت كبيرةً[2]، فقد قُتِلَ عدد من أمرائهم أمثال الأمير بدر الدّين محمد بن أبي القاسم الهكّاري[3]، وسيف الدّين بن المرزبان[4].

صعد الملك المعظّم عيسى إلى الحصن أعقاب فشل الحصار، ووزّع الأموال، وخلعَ الخُلَع، وطيّب خواطر النّاس، وشكرهم على جهودهم في الحفاظ على الحصن[5]، وكتب كتاباً لوالده الملك العادل جاء في أوّله بيتان من الشّعر يقول فيهما:

قُلْ للخَليفَةِ لا زَالَتْ عَزَائِمُهُ لَهَا عَلَى الكُفرِ إبْرَاقٌ وإرْعَادُ

إنّ الفِرِنجَة بأرضِ الطّورِ قَدْ نَزَلُوا لَا تَغْفَلَنّ، فَحِصْنُ الطّورِ بَغْدَادُ[6]

بعد فشل الصليبيين في غاراتهم على حصن الطّور، أخذوا يخططون لعملٍ عسكريٍ جديد يستردّون به كرامتهم المهدورة[7]، فاتّجهوا إلى بلدة مرج عيون[8]، وقلعة شقيف أرنون[9]. وأثناء تواجدهم في هذه المناطق صمّم صمّم ديونيس[10](Dionise) ابن أخت ملك هنغاريا على مهاجمة جبل صيدا[11]، وقد نهاه صاحب صيدا

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص257؛ الحنبلي، شفاء، ص225.

([2]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 952.

([3]) محمد بن أبي القاسم بن محمد أبو عبدالله الهكّاري الأمير بدر الدّين، كان من المجاهدين، وله مواقف مشهورة في قتال الصليبيين، وهو من أكابر أمراء الملك المعظّم، وكان يستشيره، ويصدر عن رأيه، ويثق به لصلاحه وتديّنه، كما كان سمحاً جواداً، وقد نُقلَ جثمانه بعد استشهاده إلى القدس ودفن فيها. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

([4]) هو سيف الدين بن المرزبان من أبطال المسلمين الذين استشهدوا على حصار الطور، وكان من الصالحين الأجواد. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص79.

([5]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ الداوادري، كنز الدرر، ج7، ص192.

([6]) أبو شامة، الذيل، ص103؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص89.

([7]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص594؛ أبو شامة، الذيل، ص103؛ الداوادري، كنز الدرر، ج7، ص 200.

([8]) مرج عيون: مرج واسع يقع بين نهر اليرموك وقلعة شقيف أرنون. الأصفهاني، الفتح القسي، ص 285؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص97؛ الحموي، معجم، ج4، ص488.

([9]) شقيف أرنون: قلعة حصينة جداً في كهف داخل جبل بالقرب من بانياس من أرض دمشق. الحموي، معجم، ج3، ص 309.

([10]) ديونيس(Dionise) : ابن أخت أندرو ملك هنغاريا، وكان يتبع إليه قرابة الخمسمائة فارس من نخبة فرسان الصليبيين، وقد قتل في الهجوم على جزيرة الميادنة. عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 174.

([11]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص112.

الصليبي، وقال له: هؤلاء رماة والبلد وعرٌ[1]، لكنّه لم يقبل النصيحة، فقام ومعه خمسمائة من الفرسان الصليبيين واتّجهوا إلى الميادنة[2]. فأخلاها أهلها[3]، ونزل الصليبيون وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا[4]، ولكن أهل الميادنة لم لم يتركوهم ينعمون بتلك الرّاحة، فنزلوا عليهم من الجبال، وفاجأوهم واستولوا على خيولهم، وأعملوا فيهم الأسر والقتل[5].

كان ديونيس من بين القتلى[6]، ولاذ الباقون بالفرار بعد أن تمكّنوا من أسر رجل من المسلمين يدعى الجاموس[7]، وقد أشار عليهم هذا الأسير بأنه يعرف طريقاً مختصراً وسهلاً إلى صيدا[8]، فوعدوه بالمال[9]، ولكنه ولكنه سلك بهم طريقاً وعراً، وتمكّن المسلمون من أن ينزلوا بالفارين القتل والأسر أيضاً[10]، فشعر الباقون أن الجاموس قد غرّر بهم فقتلوه[11]، ويذكر سبط ابن الجوزي أن أهل جزيرة الميادنة قد تمكّنوا من إبادة الصليبيين عن آخرهم، عدا ثلاثة منهم وصلوا إلى صيدا، وسيق الأسرى إلى دمشق[12]، ويضيف سبط ابن الجوزي أنّه كان يوماً عظيماً ومشهودا[13].

ولم يقم الصليبيون بعد ذلك بأي عملٍ عسكري ضد المسلمين حتّى قدوم الحملة الخامسة إلى دمياط[14]. حيث كان الشتاء قارصاً وتسبب البرد في هلاك عدد كبير منهم، وهبّت عليهم رياح اقتلعت خيامهم وبعثرت امتعتهم[15]، وقد أوجدت هذه الحوادث شعوراً لدى الصليبيين بأنّ الله قد تخلّى عنهم[1]. وبخاصة بعد إعلان الملك

([1]) المصدر نفسه، ج33، ص112.

([2]) الميادنة: جزيرة بالقرب من قرية مشغرا، وتقع مشغرا على سفح جبل لبنان. الحموي، معجم، ج3، ص540.

([3]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

([4]) أبو شامة، الذيل، ص 103.

([5]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103.

([6]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

([7]) أبو شامة، الذيل، ص 103.

([8]) المصدر نفسه، ص103.

([9]) المصدر نفسه، ص103.

([10]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103.

([11]) أبو شامة، الذيل، ص 103.

([12]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103.

([13]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

([14]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص55؛ ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 765.

([15]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص55؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 765.

أندرو في أوائل شوال من سنة 614هـ/ 1218م، عن استعداده بالعودة إلى بلاده[2]. وكان قد قام بزيارة إلى حصن الأكراد وحصن المرقب[3]، وأسبغ هداياه على الإسبتارية تكريماً لهم لدفاعهم عن الحصنين في وجه المسلمين، ثم عاد إلى عكّا[4]، وعبر منها إلى بلاده[5]، منهياً الحملة الهنغارية دون أن يحقق عملاً ذا أهميّة بالنسبة للموقف في الشام[6]، وقد ألحق أندرو الضرر بالصليبيين بعودته إلى بلاده[7]، سيّما وأنّ عدداً من جنوده قد رافقه[8]، وكان الموقف يحتّم عليهم البقاء في الشّام للانضمام إلى القوّات الصليبية القادمة لمهاجمة دمياط[9]، أو البقاء بالشام للدفاع عن الممتلكات الصليبية أثناء تواجد اخوانهم في مصر[10]، ويذكر أوليفر أن رحيل أندرو تسبب في فشل الحملة الصليبية الخامسة بأكملها[11]. ويصف ويندوفر (ت:1237م) من غادر مع الملك أندروا بالخيانة والخذلان لجيش الصليبيين[12].

اتجه الملك جان دي برين إلى تحصين مدينة قيسارية، وبناء قلعة ضخمة في عتليت، جنوبي يافا وفوق جبل الكرمل[13]، وهي قلعة حصينة ومنيعة تقع على مرتفع[14] عالٍ، وقد بناها فرسان الدّاوية والإسبتارية وتعرف

([1]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص55؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 765.

([2]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

([3]) حصن المرقب: قلعة على قمة جبل يشرف على بانياس وعلى بحر الشام، وهو من قلاع الإسبتارية الحصينة التي تحرسها الأبراج، وفي اسفلها صخور ضخمة، وكانت هندستها خليطاً من هندسة الحصون الواقعة جنوبي فرنسا والهندسة البيزنطية، وقد استولى عليها الصليبيون حوالي عام 1117–1118م. أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 255؛ جوزيف، نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام" هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدّسة"، ط3، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1971، ص 118.

([4]) ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدّسة، منشور في الموسوعة الشاميّة، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكّار، دمشق، 1419هـ/ 1998م، ج34، ص 311.

([5]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

([6]) ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 770؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص68.

([7]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

([8]) المصدر نفسه، ج34، ص57.

([9]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103؛ ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 770.

([10]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص261.

([11]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

([12]) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 770.

([13]) جبل الكرمل: جبل مشرف على حيفا بسواحل الشّام، وكان قد أُقيم عليه مسجدٌ في الإسلام يعرف باسم مسجد سعد الدولة. الحموي، معجم، ج4، ص317.

([14]) ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدّسة، ج34، ص 340.

باسم قلعة الحجاج[1]، وظلوا مرابطين فيها ينتظرون قدوم باقي القوات الصليبية الآتية من أوروبا[2]، ويتدبّرون أمر أمر الهجوم على دمياط، تمهيداً لغزو مصر كلّها[3]. وقد حدّد القادة الصليبيون قلعة الحجّاج نقطةً لتجمّع القوات الصليبية، وربما أختيرت القلعة لقربها من عكّا الميناء الصليبي الرئيس بالشام، وللتمويه أيضاً على المسلمين وإخفاء تحرّكات الحملة.

لقد كان للمعظّم عيسى نشاطٌ حربي فاعل في مقاومة الصليبيين، وقد سبق هذا النشاط اجتياح الصليبيين لدمياط في الحملة الصليبية الخامسة، وقد تمثّل ذلك النشاط الحربي للمعظّم عيسى في مقاومته للصليبيين، خاصةً في عكّا ومناطق السّاحل، وقد تَبِعَ ذلك النشاط مشاركة المعظّم عيسى في مقاومة الحملة الصليبية الخامسة، تلك المشاركة التي حسمت الموقف لصالح المسلمين فيما بعد.

استدعى العادل ولده الملك المعظّم عيسى، وطلب منه أن يهدم حصن الطّور، باعتباره أصبح يشكّل خطراً على دمشق، إذا ما استولى عليه الصليبيون، وأمره بنقل ما فيه من العدد والسلاح والذخائر، لاستعمالها في قتال الصليبيين في دمياط[4].

رفض الملك المعظّم عيسى بدايةً هدم الحصن، وخرج من عند والده غاضباً، لكنّه استجاب بعد ذلك مقابل تعويض يأخذه في مصر[5]، فنقلَ ما كان في الحصن من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون والكرك ودمشق، وذلك في سنة 615هـ/ 1218م[6].

6.4 الملك المعظّم يساعد الملك الكامل في قتال الصليبيين ويهاجم قيسارية

كان الصليبيون قد نزلوا على دمياط في شهر ربيع الأول من سنة 615هـ/ 1218م[1]، والملك العادل مقيم بمرج الصفر، فبعث بعساكره إلى مصر لنجدة ولده الملك الكامل[2]، وبعث الملك المعظّم عيسى بعساكر الشّام إلى السّاحل لمقاتلة الصليبيين وإشغالهم عن مهاجمة دمياط[3].

([1]) قلعة الحجاج: قلعة حصينة أقامها فرسان الدّاوية والاسبتارية والتيتون، وتقع في مدينة قيساريّة إلى الجنوب من يافا فوق جبل الكرمل، وقد أقيمت هذه القلعة للوقوف في وجه هجمات المسلمين. الحموي، معجم، ج4، ص321؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص177.

([2]) كانت هذه القوات تتألف في مجموعها من الهنغاريين والاسكندنافيين والنمساويين إضافة للقوات الهولنديّة والألمانيّة والقبرصيّة. انظر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

([3]) المصدر نفسه،(الموسوعة الشامية)، ج33، ص58.

([4]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 593.

([5]) أبو شامة، الذيل، ص109؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص81.

([6]) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص222.

ولمّا وصلت أنباء وصول الصليبيين لدمياط، تشجّع من كان منهم في عكّا وخرجوا لمقاتلة المسلمين القريبين من عكّا[4]، وكان عددهم مائة وعشرين فارساً من الدّاوية[5]، فحاصرتهم قوّات الملك المعظّم عيسى، البالغ تعدادهُا ثلاثة آلاف من المقاتلة الدّماشقة[6] بقيادته في منطقة القيمون، وانتصروا عليهم، فقتلوا أعداداً منهم وأسروا آخرين، ودخلوا بهم إلى القدس وأعلامهم منكّسة[7].

ثمّ خرج الملك المعظّم عيسى بطلبٍ من أخيه الملك الكامل إلى نابلس، ومن هناك بعث إلى سبط ابن الجوزي في دمشق، يطلب منه تشجيع الناس على الجهاد[8]، وأن يبعث له العساكر الذين كانوا يعملون بالأملاك السلطانية، والتي تقدّر بأربعمائة ضيعة وقرية[9]، واتفق معه على أن يكون اللقاء في نابلس[10].

ويقول سبط ابن الجوزي في ذلك:" فجلست بجامع دمشق، وقرأت كتابه عليهم، فأجابوا بالسمع والطاعة، وتجهزوا وحلّ ركاب المعظّم بالساحل"[11]. ويضيف سبط أنّه خرج ومن معه إلى المعظّم عيسى، وكان نازلاً على قيساريّة[12]، وذلك 617هـ/ 1220م[13]. ولكي يصرف المعظّم عيسى أنظار الصليبيين عن مصر، هاجم قيساريّة في محرّم من سنة 617هـ/ آذار 1220م[14]، فحاصرها وضرب حصونها ليلاً ونهاراً[15]، وتسبب في إصابتها إصابات بالغة[16]، ودام الحصار مدّة أربعة أيام والمدينة تقاوم ضربات المسلمين، حتى أدرك الصليبيون

([1]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 592؛ أبو شامة، الذيل، ص108؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص195؛ ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 760.

([2]) أبو شامة، الذيل، ص108؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص195.

([3]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 592.

([4]) ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 760

([5]) أبو شامة، الذيل، ص 198.

([6]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 593.

([7]) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 593؛ أبو شامة، الذيل، ص 198؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص86.

([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

([9]) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص604.

([10]) المصدر نفسه، مرآة، ج8، ق2، ص604.

([11]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

([12]) المصدر نفسه، مرآة، ج8، ق2، ص604.

([13]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص86.

([14]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

([15]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص86؛ أبو الفدا، مختصر، ج6، م2، ص22.

([16]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

عدم امكانية صمودهم أمام هجمات المعظّم عيسى، فأخلوا المدينة ليلاً[1]، واستطاع المسلمون اختراق الأسوار في اليوم التالي لخروج الصليبيين، فدخلوها ولم يجدوا فيها أحداً[2].

خرج المعظّم لهدم قلعة قيساريّة يرافقهُ عدد كبيرٌ من آلات الحصار[3]، ثمّ أمر بتدمير القلعة وتخريبها[4]، ولم يكن لدى الصليبيين وقتئذٍ بالشام من القوّة ما يمكّنهم الدخول في معركة كبيرة ضد المسلمين، مما ساعد المسلمين على دخول المدينة وهدمها[5]. ثمّ توجّه المعظّم عيسى بعد ذلك إلى عثليث[6]، التي تحصّن بها فرسان الدّاوية فهاجمها، غير أن تخزين المؤن والمياه فيها جعلها تقاوم الحصار الذي فرضه المعظّم عيسى عليها، فلم يتمكّن من تحقيق غرضه فتركها وانصرف عنها[7].

7.4 دور المعظّم عيسى في مقاومة الحملة الصليبية الخامسة

كتب البابا هونوريوس الثالث[8] في العشرين من صفر عام 615هـ/ الثامن عشر من أيار عام 1218م، إلى جميع رجال الدين، وإلى ملك بيت المقدس والأمراء الصليبيين، يخبرهم بأنّه عيّن الكاردينال البرتغالي الأصل بلاجيوس[9](Pelagus) أسقف البانو، مندوباً عنه في الحملة الصليبية الخامسة [10]، وطلب من الجميع إطاعة أوامره[11]، وهكذا استعدّت القوات الصليبية من كافة الوجوه منتظرةً إشارة البدء بالتحرّك إلى هدفها دمياط[12].

([1]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

([2]) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص604.

([3]) المصدر نفسه، ج8،ق2،ص594؛ أبو شامة، الذيل، ص 198؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص928.

([4]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

([5]) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 200.

([6]) عثليث: اسم حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر، كان قد فتحه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 583هـ/ 1187م. الحموي، معجم، ج4، ص85.

([7]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص594؛ أبو شامة، الذيل، ص 198؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص928.

([8]) هونوريوس الثالث (HonoriusIII): تولّى الكرسي البابوي خلال الفترة (1216–1227م)، خلفاً للبابا أنوسنت الثالث، وقد لعب دوراً مؤثراً في أحداث الحملة الصليبية الخامسة، كما كان من أشد المتحمسين لإرسالها، والتشجيع على الاشتراك فيها، حيث كان يتلقّى التقارير الميدانية، والرسائل التي وصفت الأحداث على أرض الواقع. عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص30

([9]) بلاجيوسPelagus : كاردينال برتغالي الأصل، كان أسقفاً اختاره البابا هونوريوس الثالث ليكون مندوباً عنه، وممثلاً له في الحملة الصليبية الخامسة، وقد وصل إلى دمياط في ايلول من عام 1218م على رأس امدادات كبيرة للقوات الصليبية المرابطة هناك. عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص34.

([10]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص61.

([11]) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 759

([12]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص213.

صدرت الأوامر للقوات الصليبية بأكملها سواءً البحريّة منها أم البريّة، وذلك في 26 صفر 615هـ/24أيار 1218م للتحرّك تجاه دمياط[1]، مستغلّين حركة الرّياح الشماليّة في مثل هذا الوقت من السّنة لتحريك سفنهم عبر البحر إلى دمياط[2]. وقد وصلت هذه الطلائع في 30 صفر 615هـ/ 27 أيار 1218م قبالة مدينة دمياط[3].

ويذكر أوليفر أن الملك العادل كان يعلم بأمر رحيل الحملة، لكنّه لم يعتقد أن تكون وجهتها مصر[4]. ولذلك لم يتخذ اجراءات لمواجهة الموقف[5]، مما مكّن الصليبيين من النزول إلى البر دون عائق يُذكر[6]. ويذكر المقريزي أن عدد القوات الصليبية التي أتت إلى دمياط بلغت أربعين ألفاً من المشاة، ومائة وسبعين ألفاً من الفرسان[7]. وقيل مائتي ألف جندي. ويبدو أن مثل هذه الأعداد مبالغٌ فيها لدرجة كبيرة، يجعل جزيرة دمياط لا تتسع تتسع لمثل هذا العدد، إضافة لتعذّر إيجاد وسائط نقل تستطيع نقل هذا العدد. ولعلّ الأرجح أن هذه القوّات لم تتعدّ الأربعين ألفاً.

وفيما يتعلّق بموقف أهل دمياط تجاه الحملة، فقد كان يتّسم بالدفاع عن بلادهم دون الهجوم[8]، حيث فوجئ السكان بتواجد الصليبيين مرابطين أمامهم في جزيرة دمياط، يتحفزون للهجوم عليهم[9]، فاستعدّوا للدفاع عن مدينتهم، كما قاموا بتخزين المؤن كالقمح والدقيق والخبز ونحوها[10]، إضافةً لمخاطبة الملك الكامل(615-635هـ/ 1218- 1238)، الموجود بالقاهرة نائباً عن والده الملك العادل -المقيم وقتئذٍ بمرج الصفر في الشام- وأخبروه عن طريق الحمام الزّاجل بتواجد الصليبيين في جزيرة دمياط[11]. فخرج الكامل مسرعاً نحو دمياط، وأرسل وفوده إلى المسلمين للتجمّع في العادليّة[12]. وسيّر الإسطول الإسلامي وجعله يستقرّ في شارمساح[13].

([1]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص62.

([2]) الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ص 1881.

([3]) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص759.

([4]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص62.

([5]) المصدر نفسه، (الموسوعة الشامية) ج33، ص67.

([6]) المصدر نفسه، (الموسوعة الشامية) ج33، ص67.

([7]) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي(ت845هـ/1441م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، 4أجزاء، القاهرة، مطبعة النيل، 1324-1326هـ، ج1، ص328.

([8]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص260.

([9]) المصدر نفسه، ج3، ص260.

([10]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص72.

([11]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 262.

([12]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص584.

([13]) شارمساح: قرية كبيرة أقرب إلى حجم المدينة، وهي من كور الدقهلية، بينها وبين دمياط خمسة فراسخ(39 كم)، ومساحتها تتراوح بين 129- 135 فدّان. الحموي، معجم، ج3، ص32؛ وانظر ابن دقماق: صارم الدين

أخذ الملك الكامل يدير العمليّات العسكريّة ضد الصليبيين من العادلّية[1]، وقد حَرِصَ الكامل على عدم تمكينهم من العبور للضفة الشرقيّة للنيل[2].أمّا العادل فعندما بلغه خبر نزول الصليبيين قبالة دمياط[3]، انتقل إلى عالقين[4]، وارسل عساكره إلى مصر، حيث أخذت عساكره تتوافد على مصر أولاً بأوّل[5]، حتى لم يبق عنده من العساكر إلاّ القليل[6].

أمّا الملك المعظّم عيسى، فقد تقدّم إلى معاقل الصليبيين بالشام، بهدف إشغالهم عن دمياط[7]، ولم يقتصر دور الملك المعظّم عيسى بالضغط على الصليبيين وإشغالهم فحسب[8]، بل عمَدَ وبطلبٍ من أبيه العادل إلى تخريب وهدم حصن الطّور رغم أهميته البالغة[9].

وقد ساند الأشرف موسى أخاه المعظّم عيسى في مهاجمة الصليبيين[10]، فدخل بعساكره بلادهم ووصل إلى صافينا[11]" فخرّب ربضها ونهب رستاقها وهدم حصنها"[12]، ثمّ توجّه نحو حصن الأكراد، ونهبه وحاصر القلعة حتى كاد يستولي عليها، وظلّ مرابطاً للصليبيين في بحيرة قدس(الحولة)[13]. واتخذ الملك المعظّم عيسى طريقاً غير طريق الملك الأشرف[14]، حيث جعل وجهته دمياط [1]، وكان يهدف إلى حصر الصليبيين بين قوتين

ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي(809هـ/ 1406م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج4و5 في مجلد واحد، مطبعة بولاق، 1309-1310هـ،ج 5، ص73.

([1]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص211؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص260.

([2]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص211؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص190.

([3]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص211؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص190؛ سترنج، لي، فلسطين في العصر الإسلامي، ترجمة محمود عمايري، ط1،عمان، 1970، ص415.

([4]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592.

([5]) أبو شامة، الذيل، ص108.

([6]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص261.

([7]) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص20.

([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ أبو شامة، الذيل، ص108.

([9]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ أبو شامة، الذيل، ص108؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص190.

([10]) الداوادري، كنز الدرر، ج7، ص 178.

([11]) صافينا: من أشهر قلاع الفرسان الدّاويّة، وفيها برج يسميه الفرنج القصر الأبيض، وهو فوق جبل مرتفع، ويقع إلى الجنوب الشرقي من جزيرة ارواد. ابن الشحنة: أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي(ت890هـ/ 1485م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، 1906م، ص367.؛ وانظر جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص235.

([12]) الداوادري، كنز الدرر، ج7، ص 178.

([13]) ابن واصل، مفرج الكروب،ج3، ص266.

([14]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ باركر، ارنست، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، القاهرة، 1379هـ/ 1960م، ص140.

إسلاميتين[2]، فسابق الصليبيين إلى دمياط، ليلقاهم وجهاً لوجه[3]، فتحقق له ما أراد، وصار الصليبيون بفضل مهارته العسكريّة بين فكّي كماشة، من القوات الإسلامية التي أحاطت بهم من الشمال والجنوب[4].

غير أنّ ويندوفر يذكر أنّ الملك العادل لمّا علم بنزول الصليبيين على دمياط، أحضر ابنه الملك المعظّم، وأبلغه خوفه على الدّيار المصريّة من الصليبيين، وأبلغه أن الحل الوحيد لإخراج القوات الصليبية من مصر التنازل لهم عن الفتوحات الصلاحيّة[5]، وأضاف أنّه يمكن التضحيّة بالجزء لإنقاذ مصر[6]، أمّا المصادر العربية فلم تتعرض لمثل هذه النصيحة التي أسداها العادل لابنه المعظّم[7]، ويمكن استبعاد هذه الرواية لأن العادل شريك صلاح الدّين في الجهاد ضد الصليبيين، فضلاً عن أنّ المصادر الإسلامية المعاصرة والمتأخرة أسهبت في ذكر استعداداته لمواجهة الأعداء ودفعهم عن البلاد، فمن غير الممكن أن يفكر العادل بكل سهولة في التنازل لهم عن البلاد التي استردّها منهم، بعد تضحيات وجهاد[8]. اضافة إلى أن هذه الأملاك تخص الملك المعظّم عيسى، مما يجعل أمر قبوله بهذه النصيحة والتنازل عن أملاكه مستبعداً.

والواقع ان المناوشات العسكريّة بين الطرفين لم تنقطع منذ أن وطئت أقدام الصليبيين جزيرة دمياط[9]، وقد استخدمت القوات الصليبية المنجنيقات[10] بهدف السيطرة على برج السلسلة[11].

([1]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص217.

([2]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ باركر، الحروب الصليبية، ص 141.

([3]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص271.

([4]) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص222؛ باركر، الحروب الصليبية، ص141.

([5]) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 772.

([6]) المصدر نفسه،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص773.

([7]) عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص196.

([8]) حول استعدادات الملك العادل لمواجهة اعدائه. انظر ابن الأثير: الكامل، ج12، ص 207- 216؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص583-594؛ أبو شامة، الذيل، ص97-112؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص81-96.

([9]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 592.

([10]) المنجنيقات: جمع منجنيق وهي كلمة فارسية، والمنجنيق عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه طويل وذيله خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي توضع فيها الحجر، ويجذب حتى ترتفع أسافله على أعاليه، ثم يُرسل فيرتفع ذيله الذي فيه الكفة، فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئاً إلا اهلكه، ويلحق بالمنجنيق اللوب والحبال، ومن أنواعه التركي، والفارسي، والعربي. القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص136؛ ابن الفرات، تاريخه، ج2، م4، ص5.

([11]) برج السلسلة: من أقوى الأبراج وأكثرها منعة في مياه دمياط، ظل صامداً أمام غارات الصليبيين فترة طويلة، وشكّل عائقاً أمام تقدمها، حتى خسروا الكثير من جنودهم في محاولاتهم اقتحامه، وكان صاحب فكرة اقتحامه المؤرخ أوليفر أوف بادربون، حيث اقترح فكرة جديدة في الفنون العسكريّة، تقوم على إقامة صواري على سفن

استعان الصليبيون بسفن الستائر [1] لحمايتها من رماح المسلمين[2]، وشنوا هجوماً على دمياط في يوم الجمعة 26 ربيع الأول 615هـ/ 22 كانون ثاني 1218م[3]، غير أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل أمام صمود دفاع المسلمين عن مدينتهم وقوتهم[4]. ولم يتمكّن الصليبيون من إسقاط برج السلسلة إلا بعد أربعة أشهرٍ من القتال[5]. ذلك السقوط الذي وقع على العادل كالصاعقة فدقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض لساعته مرض الموت[6].

وجدير بالذكر أن المعسكر الصليبي قد تعرض لكوارث بعد ذلك تمثلت بعواصف شديدة تبعها أمطارٌ غزيرة[7]، إضافة لمداهمة الحمى والأمراض الجلديّة، والأوبئة التي تفشت داخل المعسكر[8]. كما احتدم الصراع بين المندوب البابوي بلاجيوس، والملك الصليبي جان دي برين قائد الحملة الصليبية الخامسة[9].

واجه الملك الكامل الأخطار الصليبية واحداً تلو الآخر، غير أنّ الخطر الحقيقي الذي هدّده بعد وفاة الملك العادل جاء من جانب أحد قادته[10]، عماد الدين

ابن المشطوب طمعاً في السلطة، يسانده لفيف من الأمراء الأكراد حيث اتفق الجميع على خلع الكامل، وتنصيب أخيه الملك الفائز إبراهيم مكانه[11]، وقد تسربت أخبار تلك المؤامرة إلى الملك الكامل وهو مرابط للصليبيين في معسكره بالعادلية[1].

مشدودة لبعضها، والتسلق على تلك الصواري لتجاوز برج السلسلة والقفز عليه، وقد نجحت تلك الفكرة في اقتحام البرج. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص79.

([1]) الستائر: وهي آلات الوقاية من الطوارئ، وما في معناها مما يستر به على الأسوار والفن التي يقع فيها القتال. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص138؛ وانظر المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص102.

([2]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص212.

([3]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص81؛ الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ص1869؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 756.

([4]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص212؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 189.

([5]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص212؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص259-261؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص170؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص190.

([6]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 593؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 190.

([7]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص59.

([8]) المصدر نفسه، ج34، ص60.

([9]) المصدر نفسه، ج34، ص 60.

([10]) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص184؛ الداوادري، كنز الدرر،ج7، ص107.

([11]) ابن الأثير، الكامل،ج10،ص376؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2،ص 602؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص648. ابن العميد، أخبار الأيوبيين.

جاءت تلك المؤامرة في وقت عصيب وظرف دقيق، جعل الملك الكامل يترك العادلّية[2]، وترتّب على ذلك أن العساكر المرابطة للصليبيين تركت خيامها واسلحتها وتجهيزاتها واقتفت أثر الملك الكامل[3]. حتى باتت العادلّية –خط الدفاع الأول ضد الصليبيين– ليلة الثلاثاء 18 ذي القعدة 615هـ/ 5 شباط 1219م، خالية من العساكر بعد أن قاومت الصليبيين أكثر من ثمانية شهور[4]، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الصليبيين. فعبر الملك جان دي برين للضفة الشرقية من النيل، وكان ما غنمه " عظيماً يُعجز العادّين"[5]. وهكذا أصبح موقف الجبهة الإسلامية في غاية السوء، بعد امتلاك الصليبيين للعادلّية، وإحكامهم الحصار على دمياط[6]، بالإضافة إلى الخلل الذي انتاب المعسكر الإسلامي بعد مؤامرة ابن المشطوب[7]، وأدّى إلى انتشار الرعب في نفوس أهل مصر كلها[8]. فتحرّج موقف الملك الكامل[9]، وأخذ يفكر بترك البلاد للصليبيين[10]، وبذلك تهدّدت الجبهة الإسلامية بالانهيار التام[11].

وصل الملك المعظّم عيسى إلى أخيه الكامل بعد يومين من مؤامرة ابن المشطوب[12]، وعبور الصليبيين إلى العادليّة[13]، يوم19 ذي القعدة 615هـ/ 6 شباط 1219م. وأنهى أمر ابن المشطوب وأتباعه[1]. وقد ترتب

([1]) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص79؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226.

([2]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛الدواداري، كنز الدرر،ج7،ص198.

([3]) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص58؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص134.

([4]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ ابن العديم، زبدة الحلب،ج2، ص643؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص198؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص249؛ ابن خلدون، تاريخ، م5، ص399؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 314.

([5]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ ابن العديم، زبدة الحلب،ج2، ص648.

([6]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116.

([7]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص198.

([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص58.

([9]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ أبو شامة، الذيل، ص116.

([10]) أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛الدواداري، كنز الدرر،ج7، ص198.

([11]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80.

([12]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص377؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17.

([13]) الحموي، التاريخ المنصوري، ص77؛ابن العميد، اخبار الأيوبيين، ص12؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص199.

على مؤامرة ابن المشطوب امتلاك الصليبيين للعادليّة، والاستيلاء على برج دمياط، وانهيار مقاومة الجبهة الإسلامية هناك.

8.4 الملك المعظّم عيسى يُخرّب بيت المقدس

وما إن تخلّص الملك الكامل من مؤامرة ابن المشطوب التي مزّقت وحدة القوات الإسلامية[2]، أخذ يستنجد بإخوته ويستحثّهم في سرعة الوصول لمصر لاستنقاذها من خطر الصليبيين[3]، فكاتبهم" الوحا الوحا العجل العجل أدركوا المسلمين"[4]، " وا إخوتاه واغوثاه وا إسلاماه أدركوا الإسلام، أعينوا أمة محمد عليه السلام"[5].

تولّى المعظّم عيسى أمر استنهاض ملوك البيت الأيوبي وأمرائهم في الجهاد ضد الصليبيين[6]، واتّخذ عدّة اجراءات عمليّة لقطع الطريق على الصليبيين في الوصول إلى أهدافهم[7]، فقام بإمداد مصر بما تحتاجه من الرجال، من خلال تجنيد عساكر دمشق لهذه الغاية[8]، دفعاً للخطر عن دمياط[9].

واعتماداً على ما ذكره أوليفر باعتباره من شهود العيان الصليبيين، فإنّ دمياط سقطت يوم الثلاثاء 25شعبان 616هـ/5 تشرين ثاني 1219م بيد الصليبيين[10]، فوقع ذلك السقوط كالصاعقة على المسلمين، فبكى كلٌّ من المعظّم والكامل بكاءً شديداً[11]، وقال الملك المعظّم عيسى:" لو كان الدعاء الآن يُسمع لسُمع دعاء أهل دمياط، فإنّ الله تعالى أخبرنا أنه يستجيب دعاءنا في عدّة مواضع من كتابه، وانّما أهل دمياط لمّا كثر فسقهم وفجورهم سلّط الله عليهم من انتقم منهم"[12].

([1]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18.

([2]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11.

([3]) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص80.

([4]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص35.

([5]) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص191.

([6]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19.

([7]) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244.

([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244

([9]) أبو شامة، الذيل، ص115.

([10]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص59.

([11]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص176؛ ابن تغري بردين النجوم، ج6، ص 238.

([12]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 603.

وبادر الملك الكامل والملك المعظّم بإرسال السفراء إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله(575-622هـ/ 1179-1225م)، في بغداد يحثّونه على دفع المسلمين لحمل السلاح للدفاع عن العروبة والإسلام[1]. وقد استعدّت استعدّت الجبهة المصريّة بكافّة امكاناتها لمواجهة الزحف الصليبي[2]، فاتّحدت مع الجبهة الشّاميّة التي لم تكن أقلُّ أقلُّ نشاطاً واستعداداً لمواجهة ذلك الزّحف[3]، حيث جُمعت عساكر الشام لاستخلاص مصر من أيدي الغزاة ونصرة ونصرة الملك الكامل[4].

ولقد قام الملك المعظّم عيسى بنشاط ملحوظ في ذلك الوقت، فكان "مصيافاً لأخيه الملك الكامل"[5]، كما كان من أحرص النّاس "على خلاص دمياط"[6]، حيث جمع العساكر[7]، وحثّ الملك الأشرف على مساعدته[8]، وقام المؤرّخ سبط ابن الجوزي بجهدٍ كبير في سبيل جمع العساكر الإسلاميّة، وتوحيد صفوفها تحت قيادة الملك المعظّم عيسى[9]، وبدأت الاستعدادات في المسير نحو القاهرة لنجدة الكامل[10]، وقد استقبل الملك الكامل الوفود التي قدمت إليه، وسرّ سروراً عظيماً بقدومهما[11]، وأيقن بحصول النصر والظفر بالعدو[12]، وقد بلغت جموع عساكر

([1]) كان من بين الذين أُرسلوا لطلب النجدات صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ محمد بن حمويه، ولكنّ هذا الرسول لم يتمكّن من الوصول للخليفة الناصر، فقد مرض بين حرّان والموصل وتوفي هناك، وقد كان هذا الرسول هو الذي أخبر الملك العادل بسقوط برج دمياط. انظر ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص222.

([2]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214.

([3]) المصدر نفسه ، ج12، ص214.

([4]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص619.

([5]) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص240.

([6]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص2؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص240.

([7]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص621.

([8]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216.

([9]) يذكر سبط ابن الجوزي أنّ الملك الأشرف سار معه وهو كارهٌ للمسير نحو مصر، وأنّه ظهر مقصّراً في حق أخيه الكامل. انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 620، غير أنّ ابن الأثير يختلف مع سبط ابن الجوزي في ذلك حيث يروي أنّ بعض خواص الأشرف أشاروا عليه بإرسال العساكر إلى مصر، والعودة إلى بلاده، خوفاً من اختلاف يحدث بعده، لكنّ الملك الأشرف لم يقبل رأيهم وقال:" قد خرجت بنيّة الجهاد ولا بدّ من إتمام هذا العزم". انظر ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214.

([10]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص621.

([11]) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

([12]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص621؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص95.

الشام التي قادها المعظّم عيسى مع الوفود التي قدمت له والتحقت به حوالي أربعين ألفاً، وذلك بحسب رواية المقريزي[1]. ولعلّ هذه المعلومات تؤكد قيادة الملك المعظّم للقوات الشاميّة بعد وصولها له في مصر.

لم تكن تحركات القوات في الشام بخافية على الصليبيين، فقد أبلغت الملكة أليس[2] (Alice) –الوصية على عرش قبرص– المندوب البابوي أن المعظّم والأشرف يقومان بجمع جيش كبير من القوات الإسلامية في الشام[3]، ولعلّ هذه الأخبار كانت من الأسباب التي تذرّع بها بلاجيوس للإسراع في الزحف نحو القاهرة،

وقد جاءت أوامر الملك المعظّم عيسى بتخريب أسوار بيت المقدس وأبراجها وحصونها[4]والعديد من الأماكن الاستراتيجية الأخرى، تلبيةً لتحقيق متطلبات خطّة عسكريّة تخدم البلاد الإسلامية بعمومها، وتحفظها من خطر الاجتياح الصليبي[5]، حيث كان الملك المعظّم عيسى يخشى وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وامتلاكه، فيتعذُّر فيتعذُّر استنقاذه من أيديهم بعد ذلك، خاصة بعد أن بلغه أن طائفةً من الصليبيين عازمةً على الاستيلاء على بيت المقدس[6]. ولذلك أُتفق على خرابه، سيّما وأنّ الشام كانت خالية من العساكر الإسلامية[7]، وأنّه إذا ما استولى الصليبيون على القدس أمكنهم ذلك من السيطرة على بقية الممتلكات الإسلامية وحُكم الشام كلها[8].

وعلى الرغم من رفض العزيز عثمان، والأمير عز الدين أيبك المعظّمي لطلب الملك الكامل منهم تخريب المدينة[9]،على أمل الدفاع عنها في وجه الصليبيين[10]. إلاّ أنّ المعظّم عيسى كتب إليهما قائلاً:" لو أخذوه (بيت

([1]) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

([2]) أليس (Alice): هي زوجة الملك هيو ملك قبرص الذي توفي عام 1218م، وابنه هنري كونت شامباني، وهي أخت ماريا زوجة جان دي برين، وقد تولّت الوصاية على ابنها هنري الأول ملك قبرص. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج3، ص157.

([3]) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص82؛ ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 761؛ وانظر الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ص 1869.

([4]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ أبو شامة، الذيل، ص115

([5]) عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 252

([6]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244

([7]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 252.

([8]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601.

([9]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601.

([10]) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216؛ سبط ابن الجوزي، ج8، ق2، ص601؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 176.

المقدس) لقتلوا كلّ من فيه وحكموا بلاد الشام وبلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه"[1]، فاقتنعا برأيه وشرعا في خراب سور المدينة في أوّل محرّم من عام 616هـ/ التاسع عشر من أذار 1219م[2].

ويصف سبط ابن الجوزي الضجّة التي سادت المدينة في ذلك اليوم، ويشبّهها بيوم القيامة[3]، إذ خرج جميع أهل أهل مدينة القدس شيباً وشباباً رجالاً ونساءً، ومعهم أولادهم، واتجهوا إلى مسجد الصخرة والمسجد الأقصى، حيث قطعت النساء شعورهن ومزقن ثيابهن حتى امتلأ المسجدان بالشعور، ثم هرب الجميع تاركين أموالهم وذويهم، معتقدين أن الصليبيين في أثرهم[4].

وبعد تخريب أسوار مدينة بيت المقدس تمّ تخريب أبراجها[5]، حيث كانت تلك الأبراج حصينةً منيعةً في غاية المناعة، فكان كلّ برج من تلك الأبراج بمنزلة قلعة قائمة بذاتها[6]. وقد تمّ تخريب المدينة كلّها عدا المسجد الأقصى الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وبرج داوود[7].

وأصبحت المدينة بعد هذا الخراب مفتوحةً لا يمكنها الدّفاع عن نفسها، فنقل المعظّم ما كان فيها من الزردخاناة[8] وآلات القتال ونحوها[1]. وقد جاء هدم المدينة لأسباب عسكريّة استراتيجيّة، بغضّ النظر عن رأي

([1]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ أبو شامة، الذيل، ص115؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص 244.

([2]) اختلفت المصادر العربية في تحديد التاريخ الذي تمّ فيه هدم أسوار المدينة، فيرى البعض أن ذلك تمّ في ذي القعدة من عام 616هـ/ كانون ثاني 1220،أي بعد سقوط مدينة دمياط. انظر ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216، في حين يرى البعض الآخر أن ذلك كان أول المحرم أو السابع منه 617هـ/ 19أو 25 أذار 1221م. انظر أبو شامة، الذيل، ص11، أمّا ابن واصل فقد روى حادثة هدم المدينة ولكنه لم يذكر تاريخاً لذلك. انظر ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص32، في حين تتفق بعض المصادر المتأخرة مع ما أورده سبط ابن الجوزي، مثل الأصفهاني، الفتح القسي،ج5، ص66؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244، والرّاجح رواية سبط ابن الجوزي وما وافقها اعتماداً على صلة سبط ابن الجوزي بالملك المعظّم عيسى. انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601.

([3]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601.

([4]) المصدر نفسه ،ج8، ق2، ص601.

([5]) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 176؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص204؛ ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدسة (الموسوعة الشامية)، ج34، ص314؛ وانظر الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ص 1870.

([6]) ابن اللقلق، تاريخ انطاكية، م4، ج1، ص209؛ ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدسة (الموسوعة الشامية)، ج34، ص314.

([7]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص32؛ ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدسة (الموسوعة الشامية)، ج34، ص314.

([8]) الزردخاناة: كلمة فارسية مركّبة من " زرد" بمعنى سلسلة و" خانة" بمعنى مسكن او مكان، ومعناهما معاً خزانة السلاح. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، 257؛ ابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص17.

العامة في ذلك، والذين نظروا إلى الأمر من منطلق ديني عاطفي، وما يؤكّد صواب النظرة العسكرية عند المعظّم عيسى تخريبه لقلاع وحصونٍ أخرى غير مدينة بيت المقدس، كحصن تورون أو تبنين وصفد وبانياس[2]، حيث خرّبها جميعاً بقصد عدم استيلاء الصليبيين عليها، وإذا ما تسلّموها كانت خراباً لا تستطيع الدفاع عن نفسها، فيسهل على المسلمين استردادها بعد ذلك.

9.4 الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، أبرزها:

1. اقتضت الضرورة السياسية والعسكرية والحاجة المّاسة عند الملك المعظم عيسى إلى هدم المدن والقلاع والحصون.
2. مرّت العلاقة بين الملك المعظّم عيسى وملوك البيت الأيوبي بمرحلتين، امتدت المرحلة الأولى من سنة 615هـ/ 1218م ولغاية 618هـ/ 1221م، اتسمت فيها العلاقات بين الطرفين بالوفاق والوقوف إلى جانب بعضهم البعض في حل مشاكلهم، الداخلية والخارجية، ولعلّ أهم حدثٍ في هذه الفترة الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، ذلك الحدث الذي أظهر تكاتف ملوك البيت الأيّوبي وتعاضدهم وتَميُّزِ مواقفهم في الوقوف ضد الخطر الصليبي الذي كان يهددهم جميعا.

   أمّا المرحلة الثانية فقد امتدت من سنة 619هـ/1222م ولغاية 624هـ/ 1227م، وقد اتّسمت تلك المرحلة بالخلاف وتوتر العلاقات بين الملك المعظّم عيسى وبين إخوته من جانب، وملوك البيت الأيوبي من جانبٍ آخر.
3. استطاع الملك المعظّم عيسى الأيوبي أن يقضي على معظم الأمراء الصلاحيّة، ويخفيَهم عن الساحة السياسية مع نهاية العقد الأوّل من القرن السابع الهجري، سيّما وأنّ هؤلاء الأمراء كانوا هم المحرّكين الأساسيين للصراع بين أبناء صلاح الدين والملك العادل على السلطة، وقد لعب المعظّم عيسى دوراً كبيراً في تدعيم سلطة والده أثناء ذلك الصراع.
4. كان للملك المعظّم عيسى الفضل في إنهاءِ مؤامرة ابن المشطوب والقضاء عليها في مهدها، وتدعيم سلطة الملك الكامل وتثبيت أركان حكمه.
5. تمخّضَ عن الخلافات بين الملك المعظّم عيسى وملوك البيت الأيوبي وأمرائه قيام الأحلاف مع أمراء المناطق، ودخول لاعبين جدد على الساحة السياسية الأيوبية، أمثال جلال الدين الخوارزمي والامبراطور فردريك الثاني، وقد أدّت تلك الخلافات وقيام الأحلاف إلى تصدّع البيت الأيوبي، وتسليم بيت المقدس للصليبيين دون عناء.

([1]) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص12؛ الداوادري، كنز الدرر، ج7، ص 176.

([2]) اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت: 726 هـ/1324م)، ذيل مرآة الزمان، ط2،4 اجزاء، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،1992م، ج3، ص71.

6. اتّسمت علاقة الملك المعظّم عيسى الأيوبي مع الخلافة العباسيّة في بغداد بالاحترام والود، ولم تتجاوز تبادل السفراء والرسائل بين الطرفين، فالمعظّم عيسى كان يؤمن بأن الخليفة العباسي هو إمام المسلمين، ولا يجوز الخروج عليه، رافضاً كافة العروض للوقوف ضد الخلافة العباسيّة.
7. لعب الملك المعظم عيسى الأيوبي دوراً هامّاً في مواجهة الغزو الصليبي وبخاصة الحملة الهنغارية والحملة الصليبية الخامسة، كما كان له دوره في مفاوضات الحملة الصليبية السادسة فضلا عن حملاته على معاقل الصليبيين في بلاد الشام.
8. قدّمت الدراسة صورة عن الحقائق التاريخية لفترة حكم الملك المعظم عيسى الأيوبي بهدف تغطية فترة الفراغ الحضاري الذي كان يُعتقد بوجوده من قبل، خاصة بعد انقسام البيت الايوبي في بلاد الشام لرسم صورة تاريخية تكون أقرب للواقع.

References:

(1). Ibn Al-Atheer, Abu Al-Hasan Izz Al-Deen Al-Shaybani (630 AH/1232 AD) 1417 AH/ 1997 AD. Al-Kamel in History. Edited by Omar Abed Al-Salam Tadmori, 12th edition. Part 1, Dar Al-Ketab Al-Arabi. Beirut, Lebanon.

(2). Ibn Taghri Bardi, Yousif bin TaghriBardi bin Abdullah (874 AH/ 1469 AD). Al-Nojoom Al-Zahera: Kings of Egypt- Cairo. Part 16. The Ministry of Culture. Dar Al-Kotob, Egypt

(3). Al-Hamawi, Shehab Al-Deen Abu Abduulah Yaqoot Al-Roomi (626 AH/ 1228 AD) 1995AD. Mu'jam Al-Buldan. 7th edition, part 2, Dar Sader, Beirut.

(4). Al-Hamawi, Abu Al-Fada'el, Mohammad bin Ali bin Nathif Al-Hamawi (639 AH/ 1241 AD) 1981 AD. Al-Tareekh Al-Mansouri: Talkhees. Al-Kashf wa Al-Bayan fi Hawadeth Al-Zaman. Edited by Abu Al-Abed Dodo. Al-Hejaz Printing House. Damascus.

(5).Al-Hanbali, Ahmad bin Ibrahim (876 AH/ 1471 AD). Shefa' Alqoloob fi Manaqeb bani Ayoob. Edited by Natheem Rashed.

(6).Ibn Khaldoun, Abed Al-Rahman bin Mohammad bin Mohammad (808 AH/ 1604 AD) 1408 AH/ 1988 AD. Diwan Al-Mubtada' wa Al-Khabar in the History of Arab, foreigners and Berbers and the ones who lived during their era and fall from the dynasty of the Great Sultan known in the History of Ibn Khaldoun. Edited by Khalil Shehadeh. Dar Al-Feker. Beruit. 2nd edition, 8 parts

(7).Ibn Khalkan, Abu Al-Abas Shams Al-Deen Ahmad bin Mohammad (681 AH/ 1282 AD) 1994 AD. Wafeyat Al-A'yan wa Anba' Al-Zaman. 7th edition. 7 parts. Edited by Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut.

(8).Al-Dawadari, Abu Baker bin Abdullah bin Abeek (736 AH/ 1335 AD) 1391 AH/ 1997 AD. Kanz Al-Durar wa Jame' Al-Ghrar. 9 parts. Edited by Saeed Abed Al-Fatah Ashour. Cairo

(9).Ibn Daqmaq, Sarem Al-Deen Ibrahim bin Mohammad bin Aydamur Al-Ala'I (809 AH/ 1406 AD). 1309- 1310 AH. Al-Intesar Le Wasetet Aqed Al-Amsar. Part 4 and part 5 in one volume.Bulaq Printing House.

(10).Al-Thahabi, Shams Al-Deen Mohammad bin Ahmad bin Othman (748 AH/ 1374 AD) 1966 AD. The Hisotry of Islam and known figuresand media: incidents and deaths (581 AH/ 590 AH). Edited by Omar Tadmori, 1st edition. Dar Al-Ketab Al- Arabi. Beirut.

(11).Al-Thahabi, Shams Al-Deen Mohammad bin Ahmad bin Othman (748 AH/ 1347). Al-Ebar fe Khabar man Ghabar. Edited by Abu Hajar Mohammad Al-Saeed bin Basyooni Zaghloul. 4 part. Dar Al-Kotob Al-Elmeye. Beirut.

(12).Sabat Ibn Al-Jawazi, Yousif bin Qazaweghli (654 AH/ 1256 AD). 1951 AD. Merat Al-Zaman fi Tareekh Al-A'yan. Dar Al-Ma'aref Al-Othmaneye Printing House. Haidar Abad. India. Part 8, secion 2.

Abu Shameh, Abed Al-Rahman bin Ismail (665 AH/ 1226 AD), 1974 AD. Tarajem Rejal Al-Qarnen Al-Sades wa Al-Sabe' Al-Ma'rouf Bthayl ala Al-Rawdetain. Edited by Izat Al-Attar Al-Hussaini. 2nd edition. Dar Al-Jeel, Beirut.

(13).Abu Shameh, Abed Al-Rahman bin Ismail (665 AH/ 1226 AD) 1997 AD. Ketab Al-Rawdatain Aabout the news of Al-Noureye and Al-Salaheye Sates. Edited by Ibrahim Al-Zaybaq. 1st edition. Al-Resala Institution. Beirut.

(14).Ibn Al-Shahnah, Abu Al-Fadel Mohammad bin Al-Shahnah Al-Halabi (890 AH/ 1485 AD). 1906 AD. Al-Dur Al-Muntakhab in the History of Aleppo Kingdom. Beirut. Al-Aba' Al-Yao'eyoon Printing House.

(15).Ibn Shadad, Bahaq Al-Deen Yousif bin Rafe' (632 AH/ 1236 AD) 1979. The biography of Salah Al-Deen that is named Al-Nawader Al-Sultaneye wa Al-Mahasen Al-Yousefeye. Cairo. The Ministry of Culture.

(16).Al-Safadi, Salah Al-Deen Khalil bin Aybak (717 AH/ 1317 AD) 1420 AH/ 2000 AD. Al-Wafi bil Wafeyat. Edited by Ahmad Al-Arn'oot and Turki Mustafa. 29 parts. Dar Ehya' Al-Turath. Beirut.

(17).Ibn Al-Adeem, Omar bin Ahmad (660 AH/ 1262 AD). 1997 AD. Zebdet Al-Halb min Tareekh Aleppo. Edited by Suhail Zakar. 1st edition. Al-Ketab Al-Arabi. Damascus

(18).Al-Imad Al-Asfahani, Abu Abullah Mohammad bin Mohammad Al-Asfahani (597 AH/ 1200 AD). 1965 AD. Al-Fath Al-Qadi fi Al-Fath Al-Qudsi, Edited by Mohammad Mahmoud Subuh. Cairo. Al-Dar Al-Qawmeye.

(19).Ibn Al-Ameed, Jorjos bin Al-Ameed bin Elyas bin Abi Al-Tayeb Al-Nasrani (672 AH/ 1273 AD). Information about the people in Ayyubid state. Athaqafeh Al-Deneye Library. Bour Saeed

(20).Ibn Al-Furat, Naser Al-Deen Mohammad bin Abed Al-Raheem (807 AH/ 1405 AD) 1970 AD. The History of Ibn Al-Furat. Edited by Hassan Mohammad Al-Shama', Dar Al-Tebea' Al-Hadeethe, Basrah, Iraq

(21).Al-Qalqashandi, Ahmad bin Ali bin Ahmad Al-Fazari (821 AH/ 1418). Sabh Al-A'sha fe Sena'et Al-Ensha. 5 parts. Dar Al-Kutub Al-Elmeye. Beirut.

(22).Al-Katbi, Mohamamd bin Shaker bin Ahmad bin Abed Al-Rahman bin Shaker bin Haroun bin Shaker Salah Al-Deen (764 AH/ 1362 AD) 1974 AD. Fawat Al-Wafeyat. Edited By: Ehsan Abbas. 4th edition. 1 part. Dar Sader. Beirut.

(23).Ibn Katheer, Abu Al-Feda Ismail bin Ali (774 AH/ 1372 AD) 1407 AD/ 1986 AD. Al-Bedaya wa Al-Nehaya. 15 parts. Dar Al-Feker

(24).Ibn Laqlaq, Kairles the third (1216 AH/ 1263 AD) 1974 AD. The hisotry of patriarchs in the Egyptian church. 4 volumes, Published by: Antwan Khater and Dr. Azold Normester. The Printing House of the French Scientific Institute for Eastern monuments

(25).Al-Maqreezy, Taqi Al-Deen bin Ali (845 AH/ 1441 AD), 1418 AH /1997 AD.Asuluk le Ma'refet Duwal Al-Muluk. Edited by Mohammad Abed Al-Qader Atta. 8th edition, 1 part, Dar Al-Kotob Al-Elmeye. Lebanon. Beirut.

(26).Al-Maqreezy, Taqi Al-Deen bin Ali (845 AH/ 14441 AD) 1324 -1326 AH. Al-Mawa'eth wa Al-E'tebar fe Thekr Al-Khutat wa Al-Athar, 4 parts. Cairo. Al-Neel Printing House.

(27).Al-Nweeri, Ahamd bin Abed Al-Wahab bin Mohammad bin Abed Al-Da'em Al-Qurashi Al-Taymi Al-Bakri, Shehab Al-Deen (733 AH/ 1332 AD). 1423 AD. Nihayet Al-Arab fi Funun Al-Adab. Dar Al-Kutub wa Al-Wathaeq Al-Qawmeye. Cairo. 1st edition. 33 parts

(28).Ibn Wasel, Jamal Al-Deen Mohammad bin Salen (697 AH/ 1297 AD). Mufarej Al-Koroob fe Akhbar bani Ayoob. Edited by Hasanain Mohammad Rabee' and Saeed Abed Al-Fatah Ashour, 5 parts

(29).Al-Younini, Qutb Al-Deen Abu Al-Fateh Mousa Bin Mohammad (726 AH/ 1324 AD). 1992 AD. Thayl Mer'at Al-Zaman, 4th edition. 2 parts. Dar Al-Ketab Al-Islami, Cairo.

Second: Translated Foreign works:

(30).Oliver, Ove Badreyon (1998). Taking over Dumyat. Article in Al-Shameye Encyclopedia, Drafted and Edited by: Suhail Zakar, Dar Al-Feker. Damascus.

(31).Theodoric, (1419 AH/ 1998 AD). The description of the Holy land by Theodoric.An article in Al-Shameye Encyclopedia. Drafted, Translated and Edited by: Suhail Zakar, Published by Saeed Al-Bishawi, part 34

(32).Roger Ove Windover, (1237 AD). 1421 AH/ 2001 AD. Woroord Al-Tarikh, An article in Al-Shameye Encyclopedia. Drafted, Translated and Edited by: Suhail Zakar, Damascus. Section 2, part 39.

(33).Muna Al-Bareesi (1235-1273 AD) 1422 AH/ 2001 AD. The Great History.An article in Al-Shameye Encyclopedia. Drafted, Translated and Edited by: Suhail Zakar, Damascus, Section 5, Part 40.

Third: References in Arabic:

(34).Parker, Earnest, 1379 AH /1960. The crusades. Translated by Al-Sayed Al-Baz Al-Arini, Cairo.

(35).Streng. Le (1970 AD). Palestine during the Islamic age. Translated by: Mahmoud Amayri, 1ST edition. Amman.

(36).Thuhair, Ehsan Elahi (1407 AH/ 1987 AD). 1415 AH/ 1995 AD. She'ah and Tashyee': Groups and History, Turjuman Alsunah, Lahur, Pakistan, 10th edition, 1 part

(37).Ashour, Saeed (1976 AD).The crusades, 3rd edition, The Publications of Anglo library. Cairo

(38).Emran, Mahmoud Saeed (1985 AD), The fifth crusade: The crusade launched by Jan Di Bren against Egypt: 615-618 AH/ 1218-1221 AD. Cairo. Dar Al-Ma'aref

(39).Kard Ali Mohammad 1343-1347 AH/ 1925-1938 AD. Kitab Khutat Alsham, 6 parts. Damascus. Al-Matba'a Al-Hadithi

(40).Nasim, Joseph 1971 AD. The crusades against the Levant: The failure of Lewis; the ninth in the Holy land. 3th edition. Alexandria. Dar Al-Kutub Al-Jame'eye.

(41).Nasim, Joseph 19696 AD. The crusades against Egypt: The failure of Lewis; the ninth in Mansurah and Faraskur. 1st edition. Alexandria. Dar Al-Kutub Al-Jame'eye

Fourth: Foreign References:

(42).Humphreys, R .Stephen. 1193- 1260, From Saladin to Mongols, The Ayyubids of Damascus.

(43).Gibb,H. 1969," The Ayyubides" Ahistory of the crusades, Edited by Setton,Vol,lI, the university of Wisconsin press, Milwau Ree